﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾ [النور:24]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

يـومُ القيامةِ هو اليومُ الذي يقع فيه الوعيد السّابقُ ذكرُه

الآيةُ السّابقةُ ذكرتِ الوعيد المنتظَر لهؤلاء القاذفين: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾؛ ثم جاءت هذه الآيةُ تكشف عن اليوم الذي سيقع فيه هذا الوعيد: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

فعلى هذا، تكون الآيةُ التي نحن بصددها متَّصلةً بما قبلَها اتِّصالًا وثيقًا، "ومَسوقةً لتقرير العذاب المذكور، بتعيين وقت حلوله، وتهويلِهِ ببيان ظهور جناياتهم الموجِبة له"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَشۡهَدُ﴾: الشَّهادةُ: خبَرٌ قاطعٌ، والمشاهدة: المعاينة[2]، فـ"الشين والهاء والدال أصلٌ يدلُّ على حضورٍ وعلم وإعلام، لا يخرج شيء من فروعه – من ذلك الشَّهادة – يجمع الأصول التي ذكرناها من الحضور، والعلم، والإعلام"[3]، ولذلك قيل: إنَّ الشهادة: قولٌ صادر عن علمٍ حصل بمشاهدةِ بصيرة أو بصر[4]، فالجوارحُ المذكورة في قول الله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم﴾ ستشهد على صاحبها يومَ القيامة شهادةَ العلمِ البصيرِ الحاضر المُطَّلِعِ على الحقائق.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 166.
(2) الجوهري، الصحاح: (شهد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(4) الراغب، المفردات: (شهد).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الآية تبيِّن أنَّ الجوارحَ تشهَد على أصحابها يوم القيامة، بأعمالهم الَّتي عملوها في الدُّنيا.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

إيثارُ ظرف الزَّمان ﴿يَوْمَ﴾:

في يوم القيامة تُكشف فيه الأسرار، ويُفتضَح فيه الفجّار

آثر النَّظمُ الحكيم ظرفَ الزمان ﴿يَوْمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾؛ ليدلَّ على "أنَّ ذلك العذاب العظيم يكون في يومٍ لا يخفى فيه آثمٌ، ويكون كلُّ شيءٍ شاهدًا على ما أجرموا"[1].

إيثارُ فعلِ الشَّهادة ﴿تَشْهَدُ﴾ مضارعًا:

وجوبُ الاستعدادِ ليوم التَّنادِ

جاءَ فعلُ الشَّهادة ﴿تَشْهَدُ﴾ مضارعًا في قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾؛ لاستحضار الصورة الغائبة، لتكونَ نصبَ العيون، فيكونَ الاعتبارُ أوقعَ، والخوفُ أفزعَ، فيجعل الناس يستعدّون ليوم الميعاد بخير الزاد.

توجيهُ القراءةِ في ﴿تَشْهَدُ﴾ وبلاغتها:

شهادةُ الجوارِح تكشِف الفضائِح

اختلف القرّاءُ في فعل الشهادة من قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾، فقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ العاشِرُ ﴿يَشْهَدُ﴾ بالياء على التَّذكير، وقرأ الباقون ﴿تَشْهَدُ﴾ بالتاء على التَّأنيث[2].

وتوجيهُ قراءة الياء ﴿يَشْهَدُ﴾ بأنَّ الفاعل وما عُطف عليه ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ مؤنَّثٌ مجازيٌّ، وقد وقع الفَصْلُ بين الفعل وفاعله بالجارِّ والمجرور ﴿عَلَيْهِمْ﴾[3]، ويجوز أن يكون روعيَ في التَّذكير معنى النُّطق من هذه الجوارح، فيكون التَّأنيثُ لظاهر الجوارح، ويكون التَّذكير لنطقها، فيكون الإنسان مشهودًا عليه من

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5171.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 331.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 26.

الجهتين تخويفًا وتحذيرًا، وملمح آخر لقراءة التذكير وهو النظر إلى المفرد، وهو أن اللّسان مذكّر، فذكرت الفعل كما أقول: (يقوم الرجال)، "والحجة لمن قرأ بالتاء: أنه أتى به على لفظ الجماعة: واللسان يذكَّر فيجمع (ألسنة)، ويؤنث فيجمع (ألسن)"[1].

دلالةُ شِبهِ الجملة ﴿عَلَيْهِمْ﴾، وسرُّ تقديمِها:

شهادةُ الأعضاء حـجَّـةٌ عـلى أصحابها

الضَّمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ من قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ يعود على القَذَفَة للأعراض، ويُلمَح من دلالة (على) الاستعلائيَّة أنَّ شهادة الأعضاء متمكِّنة منهم تمكُّنَ المستعلي من المستعلَى عليه، فلا يستطيعون الفرار أو الإنكار.

وتقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على الفاعل وما عُطف عليه ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ أرهبُ للقاذفين، فهمُ المقصودون بإيقاع الشَّهادة عليهم، والمعنيّون بأمرها، وفيه أيضًا اعتناءٌ شديدٌ بالقذَفَة للمحصنات، ليس اعتناءَ تكريم، بل اعتناء إهانة، وفضحٍ لأمرهم، وكشفٍ لأسرارهم.

وتأخيرُ الفاعل يجعل النَّفس تشرئِبُّ لمعرفة أحوال الشاهدين، فإذا ما وقفتِ النَّفس على الجوارح الشاهدة تمكَّنت في النفس خيرَ تمكُّنٍ، يهيِّئ للإنسان الاعتبار والادِّكار، وهذا تخويفٌ شديد يجعلهم بمنجًى من ارتكاب تلك الكبيرة،

فالتَّقديم فيه "مسارعةٌ إلى بيان كون الشَّهادةِ ضارَّةً لهم، مع ما فيه من التشويق إلى المؤخَّرِ"[2].

علَّةُ إيثار الألسنة والأيدي والأرجل:

الجوارحُ تَشهَد عـلى صاحبها بالحقِّ

ذكرَ النَّظمُ الكريم ثلاثةً من الجوارح تشهد يوم القيامة على أصحابها، وهي الألسنة والأيدي والأرجل: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ

(1) ابن خالويه، الحجة، ص: 261.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 166.

﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، وتخصيص هذه الأعضاء بالذِّكر - مع أنَّ الشهادةَ تكون من جميع الجسد، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: 21] - لأنَّ لهذه الأعضاء عملًا في رمي المحصنات، فاللِّسان ينطِقُ، والأيدي تُشير إلى المقذوف، والرِّجل تمشي للإبلاغ والإشاعة[1].

نكتةُ التَّرتيبِ في ذكر الجوارح:

مِلاكُ الأمر كلِّهِ اللِّسانُ

بدأ النَّظمُ الكريم بذكر اللِّسان أوَّلًا في الآية: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ لأنَّ اللِّسانَ هو آلةُ القذف، فهو الأداة الفاعلة في حادثة الإفك، فكان تقديمُهُ مناسِبًا للسياق، ثمَّ قُدِّمتِ الأيدي على الأرجُل؛ لأنَّ اليدَ هي وسيلةُ الكسب، بها يكون الضَّرب والسَّلب، والاختلاس والنهب، فهي في الشرِّ أفعلُ من الرِّجْل، لذلك كان تقديمها أولى منه.

ولعلَّ البدءَ باللِّسان أوَّلًا؛ لأنَّه أوَّل من يشهد، فإذا أنكر، أو قال كَذِبًا وزورًا؛ خُتِم عليه، ثم تنطق الأيدي والأرجل، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: 65].

معنى شهادةِ الأيدي والأرجل:

شهادةُ جوارحِ الإنسانِ على نفْسِهِ من كمال العدل

شهادةُ الأيدي والأرجل على الإنسان شهادةٌ حقيقية، بنطقٍ حقيقيٍّ يسمعه صاحبُهُ، وليس هناك مُسَوِّغٌ إلى الذَّهاب إلى القول بالمجاز، فتلك أمور غيبيَّة يُحمَل فيها الكلام على ظاهره، فلا يبعُد أن يُخلَق العقلُ والحياة والنطق في هذه الأعضاء، ثمَّ أنَّها تُسأل[2].

"ومعنى شهادةِ الجوارحِ المذكورةِ، أنَّه تعالى يُنطقها بقدرته،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 191.
(2) ابن عادل الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب: 12/ 286.

فتخبر كلُّ جارحةٍ منها بما صدرَ عنها من أفاعيل صاحبِها"[1]، وهذا يَبعث الخوف في نفس الإنسان، فيكون دافعًا إلى استعمال تلك الجوارح في مرضاة الله عزَّ وعلا.

توجيهُ استعمالِ (ما):

يومُ القيامة يومٌ تُبلى فيه السَّرائر

(ما) في قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ يجوز أن تكونَ موصوليَّةً، أي: تشهدُ بالذي كانوا يعملونه، ويجوز أن تكونَ مصدريَّة، أي: تشهد بأعمالهم.

وسواء كانت (ما) هذا أو ذاك، فإنَّها اختزلت أعمالًا كثيرة عُمِلت في الدُّنيا، لا يُستساغ التَّعبير عنها إلّا بـ(ما)، فكان الأسلوبُ معها موجزًا غاية الإيجاز، فضلًا عمّا تحمِلُهُ من معاني التهويل المستكنِّ فيها، فالأعمالُ التي عبَّرت عنها (ما) امتلأ بها الزمانُ والمكان، تُفصِح عنها الجوارحُ في هذا اليوم المشهود، وهذا الأسلوبُ الخبريُّ يُفهم منه معنى التَّهديد الذي يجعل الإنسان يُقيم لهذا اليوم وزنًا.

ومن مظاهر الإيجازِ أيضًا حذفُ مفعول ﴿يَعْمَلُونَ﴾، وقد أضفى هذا الحذفُ أيضًا جوًّا مِنَ التَّرهيب من مَغَبَّةِ الأعمال الموبِقة، فلا يحوم العاقلُ حولَها، ولا يقترب من حِماها.

سرُّ التَّعبيرِ بالفعل ﴿يَعْمَلُونَ﴾ مضارِعًا:

استحضارُ صورةِ الأعمال للتَّخويف والتَّحذير

التَّعبيرُ عن عملِ أصحابِ الوعيد بصيغة المضارع في قول الله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فيه ميزَةٌ عجيبة في استحضار الصورة الماضيَةِ، فهو هنا يجعل أعمال العباد الَّتي عملوها في الدُّنيا ماثِلةً لهم، منصوبةً أمامَهم، لا يستطيعون إنكارها ولا التنصُّلَ منها، حتى تقومَ عليهم الحجَّة، فيَجزيهمُ الله الجزاءَ المستحَقَّ، وهذا أمرٌ جدًّا مَخوف، يَجعل الإنسان مُكِبًّا على الطاعات، تاركًا المنكرات.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 166.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العمل والفعل والصُّنْع والكسب:

لا يُسألُ المرءُ إلّا عمّا عمِلَ بقصدٍ ودِرايـة وكـان له أثرٌ

تتَّضح دقَّةُ الأسلوب القرآنيِّ في قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ في إيثار اللفظ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ دون (يفعلون)، ذلك أنَّ العمل يكون مقصودًا من فاعله، والنَّفسُ متوفِّرة على فعله، أمّا الفعل في الغالب؛ فلا يكون مقصودًا متعمَّدًا، فـ"العَمَلُ: كلُّ فعل يكون من الحيوان بقصد، فهو أخصُّ من الفعل؛ لأنَّ الفعل قد يُنسَب إلى الحيوانات الَّتي يقع منها فعلٌ بغير قصد، وقد يُنسب إلى الجمادات، والعَمَلُ قلَّما يُنسب إلى ذلك"[1]، ومن ثَمَّ فإنَّ الإنسان يومَ القيامة لا يُسأل إلّا عن الأفعال التي انعقد على فعلها قلبُهُ، وذهب إليها قصدُهُ، وتوجَّهت إليه همَّتُه.

"والعمل إيجاد الأثر في الفعل، يُقال: فلان يعْمل الطّين خزَفًا، ويعْمل الخوصَ زنبيلًا، والأَديمَ سقاءً، ولا يُقال يفعل ذَلِك"[2]؛ لأنَّ الفعل ليس فيه الأثرُ الموجود في العمل.

أما الصُّنع؛ فيمتازُ عن العمل بأنَّ فيه علمًا سابقًا على الصنع، فالصانع يعلمُ طريقةَ ما يصنعُهُ، ويصِل بعلمه إلى ما يريد، بعكس العمل الَّذي قد يخلو من هذا العلم، والصنع فيه حِرفة ومهارة يتكسَّب الصانع منها، وليس ذلك في العمل، والصنع مضمَّن معنى الجودة بخلاف العمل.

"والكَسْب: الفعل العائد على فاعلهِ بنفع أَو ضرٍّ، وقالَ بَعضهم: الكسب ما وقع بمراسٍ وعلاجٍ، وقال آخرون: الكسْب ما فُعل بجارحة، وهو الجرْح، وبِه سُمّيتْ جوارح الإِنْسان جوارِحَ، وسُمّي ما يُصاد به

(1) الراغب، المفردات: (عمل).
(2) العسكري، الفروق اللغوية: 1/ 134.

جوارحَ وكواسبَ، ولهذا لا يوصَف الله بأَنَّهُ مكتسب"[1]، فالكسب إذا روعيَ فيه النَّفع أو الضرُّ الذي يعود على صاحبه، فإنَّه يتَّفق مع العمل في هذا، فالعمل قد يضرُّ، وينفع، وإذا روعي في الكسب معنى التعمُّل والتكلُّف والمِراس والمعالجة؛ فإنَّه يفترق في هذا عن العمل؛ لأنَّ كثيرًا من الأعمال قد لا تحتاج إلى هذا.

ومن ثَمَّ كان لفظُ العمل هو الأنسبَ للسياق؛ لِما يَحمِله منه تعمُّدُ الفعل، واستبقاء الأثر، بعكس لفظ الفعل، والصُّنع فيه مهارةٌ مرعيَّةٌ لا تتناسب مع السياق، والكسب فيه مراسٌ ومعالجة ومران، وهي أيضًا لا يقتضيها المقامُ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية: 1/ 137.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والثلاثون،
سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 36 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 36 : المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-78-5
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8956803 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»